المصري اليوم
تصدر عن مؤسسة المصري اليوم للصحافة والنشر

مساحـــــة رأى

أشتات موجعات

11 أغسطس 2008

بقلم د.يحيى الجمل

هذا المقال، علي غير العادة، لا يضم موضوعاً واحداً يعالج أبعاده ويحلله، وإنما يضم «أشتاتاً»، يجمع بينها أنها تحمل معاني الألم والوجع والفراق.

وهذه الأشتات المتفرقة الموجعة ليست مواجع شخصية بقدر ما هي مواجع عامة، ولذلك جاز أن تكون موضوعاً لمقال يكتب لقراء «المصري اليوم»، وهم - فيما أعتقد - نخبة مثقفة من المصريين المهمومين بالقضايا العامة، هذه الأوجاع العامة أربعة، اثنان منها علي المستوي العربي، واثنان داخليان.

أما أول هذه الهموم فهو ما يجري علي الأرض الفلسطينية من احتراب، بين من كان يجب أن يكونوا صفاً واحداً في مواجهة عدو شرس، فإذا بهم يفترقون ويتحاربون، ويقتل بعضهم بعضاً ويدَّعي كل منهم أنه علي صواب، ويرفض كل منهم أن يسمع الآخر ويسعي كل منهم - في السر أو في العلن - ليجري حواراً مع «العدو»، الذي لم يشعر بالراحة قدر شعوره وهو يشاهد ذلك الاقتتال والاحتراب الذي لا ينتهي إلا ليبدأ من جديد، وكأنها نوع من اللغة العربية أو لغة فلسطينية خاصة تريد أن تمزق قضية شعب عاني وتحمل وأضيم، كما لم يحدث مع أحد من شعوب الأرض.

إن الاختلاف في وجهات النظر وارد ولكن الاختلاف في بعض مراحل الكفاح يصبح ترفاً لا تطيقه المرحلة. في مرحلة التحرير ليس هناك ما يسبق الكفاح من أجل التحرير، وعندما يتحقق التحرير، وتطهر الأرض، وتعود الحقوق لأصحابها، عندئذ تصبح وجهات النظر واردة بل مطلوبة. أما قبل ذلك فهو الأمر الذي لم تعرفه حركات التحرير، التي قدر لها أن تنقذ بلادها من عدو شرس مثل العدو الصهيوني.

والذين عاشوا هموم هذه الأمة، وعاشوا القضية الفلسطينية بكل مشاعرهم وعاصروا تطورها في العقود الأربعة الأخيرة، يحزنهم ما يرونه حالياً، وما يسمعونه من تعليقات الأصدقاء والأعداء.

وقد كتب الصديق الأستاذ مكرم محمد أحمد، نقيب الصحفيين في عموده في الأهرام أن كل عربي يحس بالمهانة - بل أضاف يحس بالقرف - مما يجري علي الأرض الفلسطينية من احتراب واقتتال.

إذا كان قد بقي هناك بقية من عقل، وإذا كان قد بقي هناك بقية من أمل، فلابد أن يتوقف ذلك العبث فوراً ولابد أن تتوجه كل الحراب - بكل صورها والحراب ليست سيوفاً فقط - نحو العدو وإلا فإن الأمل سيتضاءل،الهوان سيزداد، وستستمر مأساة الشعب الفلسطيني لكي يصل إلي وضع يلعن فيه جميع الفرقاء، فهل نريد ذلك؟

أما الأمر الثاني، فقد قلت بغير وعي، عندما سمعت خبره «يا فرحة ما تمت»، وكان ذلك بشأن ما حدث في موريتانيا، حيث أطاح العسكر بالحكومة الدستورية التي شهدت مولدها في مناسبة من المناسبات الثقافية، وكان فرح المثقفين العرب عارماً، فقد آن الأوان أخيراً وشهد بلد عربي تجربة ديمقراطية دستورية حقيقية.

ولكن للأسف، يا فرحة ما تمت، وهؤلاء هم العسكر يطيحون بالحكم الدستوري، ومع ذلك يقولون إن ذلك من أجل إصلاح الأحوال.

لا إصلاح ولا صلاح بغير الديمقراطية وسيادة القانون.

تري هل في العقل العربي جينات تجعله في حالة عداء دائم مع الديمقراطية وسيادة القانون؟ يبدو ذلك.

أما الأمر الثالث الموجع، وإن كان يخفف منه أنه كان متوقعاً ،فهو انتقال المجاهد الكبير والإنسان النقي إبراهيم شكري إلي رحاب الله.

ولست أجد وصفاً أقرب إلي هذا الرجل، رحمه الله، من وصف «النقي». عرفته عن بعد وعرفته عن قرب، وفي كل الأحوال كان إنساناً نقياً لا يعرف التواء، ولا يحمل ضغينة ولا ينطوي علي كراهية لأحد.

كان أقرب إلي المتصوفة منه إلي السياسيين، وما أبعد هؤلاء عن هؤلاء.

كان إبراهيم شكري في السياسة مناضلاً، وكان أيضاً زاهداً، كان صلباً فيما يعتقد ولكنه لم يجرح أحداً قط.

وقد عدت منذ لحظات من العزاء، الذي أقيم له بجوار جامع عمرو بن العاص، ولست أدري مَنْ الذي اختار هذا المكان لإقامة العزاء، ولكن علي أي حال فإنه رغم بعد المكان وصعوبة الوصول إليه فإن العزاء كان حاشداً بكل طوائف المصريين الشرفاء، كان هناك السياسيون من كان منهم في حزبه ومن لم يكن، وكان هناك الوزراء السابقون، وبعض الحاليين، وكان هناك العديد من أساتذة الجامعة من كليات مختلفة وكان هناك من قادة النقابات المهنية والعمالية، وكان هناك من كبار رجال القضاء، كان ضمير مصر كله هناك في وداع هذا الرجل المناضل النقي، العف اليد واللسان.

أما الأمر الرابع فهو يتعلق بدعوة تلقيتها من الصديق الأستاذ الدكتور صابر عرب، رئيس هيئة الكتاب والوثائق المصرية، الذي جعل من الهيئة خلية نحل ثقافية والذي أسهم إسهامًا رائعًا في نشر بعض روائع التراث العربي، قديمه وحديثه، وكانت الدعوة من أجل حضور حفل تأبين المرحوم الأستاذ الدكتور رؤوف عباس، أستاذ ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة القاهرة.

ولم تتح لي الظروف أن أقترب من المرحوم الدكتور رؤوف عباس اقتراب الأصدقاء، ولكننا مع ذلك كنا قريبين في كثير من توجهاتنا العامة.

كان رؤوف عباس من الذين يرون أن ٢٣ يوليو كان تاريخًا مهماً وفارقًا في حياة المصريين، ومع ذلك فهو لم يكن أبدًا من دراويش ٢٣ يوليو، وكان يدرك بعين بصيرة إيجابياتها - التي انتهت - وسلبياتها التي بقيت.

وكان عالمًا، وكان موضوعيا، وكان صلبًا في الدفاع عما يعتقد أنه الحق. وقد استمعت في حفل التأبين إلي كلمات من بعض زملائه في الجامعة وبعض تلاميذه وبعض أصدقائه، وكلها كانت تصب في اتجاه واحد: إيمان رؤوف عباس بقضية مصر وشعب مصر، وإشفاق رؤوف عباس علي مصر وشعب مصر، وإخلاص رؤوف عباس لأصدقائه إخلاصًا بغير حدود، وعطائه لزملائه وتلاميذه ومريديه عطاء غير منقوص.

ورغم شدة القيظ في القاهرة، يوم حفل التأبين، فقد كان جمهور الحاضرين من عارفي فضل الفقيه العالم جمهورًا كبيرًا يضم صفوة من مثقفي مصر وأصدقاء دار الكتب والوثائق المصرية، الذين أعتز بأن أكون واحدًا منهم.

وإذا كان الشأن الفلسطيني همًا كله، وغمًا كله، وكذلك ما حدث في موريتان، فإن الأمرين الآخرين «وداع إبراهيم شكري ووداع رؤوف عباس» كان فيهما جانب الفقد بكل ما يحمله من ألم، ولكن كان هناك جانب آخر يقول إن مصر مازال فيها وفاء لأبنائها الأوفياء.

والله المستعان.

http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=116834&IssueID=1129